أســـــلوب الرافعى
وطريقته فى كتابته
للأستاذ محمود أبو رية

تحد الناس للرسالة الغراء جميل وفائها لصديقها المغفور له « مصطفى صادق الرافعى » وشكروا لها احتفاءها بذكراه الثالثة فكتبت بمناسبتها ما كتبت ، ولا ريب فى أن صنيعها هذا مع إمام من أئمة الأدب إنما هو وفاء للأدب الذى وقفت نفسها على حياطته والقيام عليه

ولقد كان مما كتب فى هذه الذكرى مقال بليغ لصديقنا الأستاذ سعيد العريان كان مما جاء فيه أنه قال عن طريقة الرافعى فى تأليف مقالاته ما وسعه أن يعرفه ، وأن ذلك مبين فى كتاب « حياة الرافعى » وفى الحق أن ما ذكره صديقنا سعيد صحيح لا ريب فيه ، ولكن ذلك لم يكن شأن شيخنا الرافعى من يوم أن أمسك القلم للكتابة ؛ وإنما كان ذلك فى منتصف سنة ١٩٣٢ فحسب ، ذلك أنه لما كتب مقال (فلسفة الأدب) فى صيف هذا العام أخذ يسأل أهل البصر بالأدب عن قيمة هذا المقال وبالغ فى السؤال ، ولما سألته عن سر اهتمامه بمعرفة آراء الأدباء فيه أجابنى بخطاب تاريخه ٢٦ يولية سنة ١٩٣٢ قال :

« إنما اهتممت بمعرفة الرأى فى مقال فلسفة الأدب لأنى كتبته بطريقة لم تتفق لى من قبل فى غيره ، فإنى لما أردت كتابته بعد كتابة فصل ابن الرومى انتكست فجعلت أدون ما خطر لى وقتاً بعد وقت ثم أخرجت المقال من هـذه الخواطر واختصرت كثيراً ولم أزد شيئاً . وهذه هى الطريقة التى يكتب بها كبار العلماء فى أوربا ، ولـكن الوقت يسعهم ولا يسعنا »

من ذلك يتبين أن الطريقة التى بينها صديقنا الأستاذ سعيد فى كتابه « حياة الرافعى » عن كتابة الرافعى لمقالاته إنما كانت فى صيف سنة ١٩٣٢ فحسب ، وكان مقال (فلسفة الأدب) أول ما كتبه بهذه الطريقة

ولقد رأيت بمناسبة القول فى طريقة كتابة شيخنا الرافعى وأسلوبه أن أوافى قراء الرسالة بما قاله هو عن أسلوبه عندما سأله العالم الجليل يعقوب صروف : لم لا يكتب بلغة سهلة يفهمها كل الناس كما كتب فى (تاريخ آداب العرب) :

فى صباح اليوم التالى حين أخبر أن هذا الأستاذ الجليل جاء يرد لى الزيارة ! أى والله سيدى القارئ إنى لا أمزح ولا أتزيد ؛ فقد جاء الأستاذ ماسيتيون للنزل المتواضع الذى كنت فيه ، ولم يمض على زيارتى له يوم وليلة ، شاكراً تفضلى — كما قال — بزيارتى له ! وأهدى إلىّ عدداً من مجلة علمية تعنى بالدراسات الشرقية والفلسفية الإسلامية تضمن الـكثير من بحوثه

لم أصل بعد لما أريد ، فهاك بقية الحديث : رأيت بعد هذا ، أو رأى رفيق سورى كان معى ، أن أسعى لزيارة الدكتور طه حسين بك رجاء أن أصيب من فضله وتوجيهه ما يساعدنى فى دراستى ، ولم يثننى عن الرغبة فى الاتصال بالأستاذ الـكبير ما أعلمه من العداء بين الأزهر وبينه ، وهو عداء ليس من صالح الأزهر ولا الجامعة أن يدوم

اتصلت إذاً بالمنزل الفخم الذى كان مقيما به بالتليفون فقيل لى إنه ليس موجوداً وكان ذلك قبل الظهر . عاودت الاتصال بعده فقيل إنه على المائدة . وأخيراً اتصلت مدة ثالثة ورجوت محدثى أن يبلغ حضرة الدكتور رجائى أن يتفضل باستقبالى فى الوقت الذى يحدده ، وتركت له رقم تليفون المنزل الذى كنت مقيما به . وهأنذا لا أزال أنتظر الرد من المواطن الجليل !

أرأيت إذاً ، قارئى العزيز أنه قبل أن تطلب من الأزهر أن يكون كأمثاله من جامعات أوربا ، يجب أن نطلب من كبار رجالنا وخاصة الذين عرفوا أوربا وتخرجوا فى جامعاتها ، أن يكونوا كرجالاتها !

ذلك خاطر أوحى إلىّ به كلمة الأخ الجليل محمود الشرقاوى . على أنى أرى أن ذلك ليس معناه ألا نطالب بإصلاح الأزهر ؛ بل على العكس من هذا أعتقد أن الأمر جد ، وأن الأزهر فى حاجة ماسة للاصلاح ، وأنه واجب دينى ووطنى أن يساهم كل قادر فى هذا السبيل برأيه وجهده . إن الأزهر إن تخلف طويلاً عن القافلة تناساه الناس وطواه الزمن فصار من أحداث التاريخ ، وحينئذ لا قدر الله يذهب آخر مجد من أمجاد مصر التالدة ويضيع المعقل المنيع الباقى للاسلام ، والله يهدينا طريق الرشاد

محمد يوسف موسى
المدرس بكلية أصول الدين

« ... تمنيتم لو جريت في إنشائي كله مجرى أسلوبي في « تاريخ آداب العرب » ومقالاتي الأخرى ، ولوددت والله أن أرفه عن نفسي ، وأطرح عني الكد فيما عالجته من أسلوب : حديث القمر والمساكين ورسائل الأحزان والسحاب الأحمر ؛ ولكني أجدني كالمسخر في ذلك لقوة تساورني في أوقاتها وتهب عليّ كالريح من سكون وركود ، فلم أفكر قط في كتاب من هذه الكتب ، ولكن تقع الحادثة ، فيجيء بها الكتاب ، ثم أرى من بعد صوته وتملق المتأدبين به ما لم أكن أقدر بعضه وتنتهي إلى آراء مشيخة الأدب وطلابه ؛ فإذا هم لا يعدلون بهذا الأسلوب شيئاً في نسقه وألفاظه ومعانيه ، ثم لا يعيبه إلا من قصر عنه وشق عليه النزوع فيه وكابر في الإقرار بعجزه ، فذهب يلتمس المعاذير والمعايب ، وأخذ في ذلك مأخذ فرعون إذ جاءته امرأة فقيرة كانت هي وأطفالها يعيشون على درّ (عنزة) لهم ، فماتت ، فأقبلت المسكينة بها على هذا الذي يدعي الألوهية ويقول أنا ربكم الأعلى وسألته أن يحييها ، فاعتذر بأن في السموات أعمالاً كثيرة أكبر من العنزة ...

أرى المتأدبين يعرفون لهذا الأسلوب ما يعرفه رجال التربية والتعليم من أساليب إنشاء التصور وإرهاف الذهن وتدقيق الخيال وقوة الطبع اللغوي وصقله وإدارة الحس عليه . ثم هم يقولون إن موضعه من هذا الكلام الخنث المتهالك الذي ترى به الأقلام المريضة في هذا العصر موضع الفحولة التي لا بد منها في الخليقة لإيجاد القوة التي لا تكون إلا بالفحولة وإشعار الهيبة التي لا تكون إلا بالقوة . فنحن في زمن كل كاتب فيه قادر على أن يرسل مداده ، يعطر وحلاً لغوياً ، حتى كل من يعرف القراءة هو كاتب إن صحح أو أفسد ، وإن أصاب أو أخطأ ، وإن أخذ اللغة والكتابة عن معجماتها ودواوينها ومدارسها ، أو أخذها من الروايات والجرائد والأسواق

يقولون هذا ويضيفون إليه أن الفصاحة العربية كادت تنقطع أمثلتها العليا ، وأنه لم يعد يكمل أحد في صناعة الكلام وأن زمننا هذا حين ينقلب إلى مرآة التاريخ فينظر فيها ، سيرى وجهه متورماً نمشاً مضمداً ملفوفاً بالجرائد ... وليس عليه ميسمة جمال ولا فيه من الأدب منظر قوة ، وأن اللغة أصبحت أشبه بالبيت المتداعي الذي يريد أن ينقض لا تسمع من أهله ولا من جيرانه ولا من السابلة في طريقه إلا « هدوا هدوا إلى الأساس »

عَلِمَ الله يا سيدي الشيخ أني ما كنت أصبر على مصيبة البلاغة ... لولا ثقتي بأجرها ولولا استئناسي إلى المعزين فيها ، وهم جمهور أهل الأدب إلا قليلاً يعزيني بأسلوب آخر يضحكني أحياناً

أما هذا الذي يسمونه غموضاً وتدقيقاً فما أنا بصاحبه ولا العامل فيه ، ولكنه طور من أطوار الزمن لا بد أن يسبق نهضة التجديد كما سبقها من قبل . فلقد كانوا يصفون به سيديْ شعراء العربية قاطبة أبا تمام والمتنبي ، حتى قالوا في أبي تمام إنه أفسد الكلام وأحاله وعقّده بتعمله وصناعته ، وإنه أتعب الناس حتى صار استخراج معانيه باباً مفرداً في الأدب ينتسب إليه طائفة من العلماء ، وإن أعرابياً سمع قصيدته التي مطلعها : طَلَلَ الجميع . فقال : إن في هذه القصيدة أشياء أفهمها وأشياء لا أفهمها ، فإما أن يكون قائلها أشعر من جميع الناس ، وإما أن يكون جميع الناس أشعر منه . وهذه شهادة بأنه أشعر من جميع الناس ولا ريب إذ يستحيل أن يصح الشق الآخر . ثم كان جمع من كبار الرواة يتعصبون عليه كابن الأعرابي والرياشي وغيرهما ، بل قد بلغ من تعصب الرياشي عليه وعلى البحتري أن قلّت نسخ ديوانيهما بالبصرة في زمنه لزهد الناس فيهما . وانتزع المتنبي شراً مما لقي أستاذه ومثله الأعلى الذي يقلده ويحتذي عليه ! ومع ذلك انحدر الشعر كله في طريقتهما إلى عصرنا هذا

ولقد كان المتنبي خَمَلَ اسمه ومُحي من لوح الزمن لو كان يعيب البلاغة عيب يكون معها . فقد قال فيه الإمام العسكري : لا أعرف أحداً كان يتتبع العيوب فيأتيها غير مكترث إلا المتنبي، فإنه ضمن شعره جميع عيوب الكلام ما أعدمه شيئاً منها. قلنا ولكن جميع عيوب الكلام (بهذا الحصر) لم تزد على أن كانت من أقوى الأسباب في تخليد حسنات الرجل

إن أرفع منازل البلاغة العربية ، كما قالوا ، أن يكون في قوة صائغ الكلام أن يأتي مرة بالجزل وأخرى بالسهل ، فيلين إذا شاء ، ويشتد إذا أراد . ولا يبلغ هذه المنزلة أحد فيحكمها ويعطيها حقها من التمييز إلا جعلته الأقدار وسيلة من وسائل حفظ البلاغة يتسلم الزمن ويسلّم ، بل قل بالألفاظ الصريحة المكشوفة: يتسلم لغة القرآن ويسلمها. فأما أسلوب واحد وطريقة واحدة فهذا في قوة كل كاتب على تفاوت فيه ، ولن يكون الرجل